معنى الحج

للدكتور حسن الترابي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله سبحانه وتعالى وأسأله أن يصلي ويسلم على سيدنا محمد كما صلى وسلم على سيدنا ابراهيم فى العالمين .. والسلام عليكم : اخواني حجاج بيت الله وعُماره .

ويسعدني أن أتحدث اليكم فى هذه المناسبة العظيمة « مناسبة الحج » وانما الحج شعيرة عظيمة موضوعة لذكر الله ولتحقيق معنى التوحيد وتعميقه فى نفس المؤمن فهو إحياء ذكرى ابراهيم عليه السلام رائد الحنيفية الأولى وهو اتباع لسنة محمد صلى الله عليه وسلم مجددها ومخلدها على وجه البسيطة .. وهو كذلك تحقيق لوحدة المسلمين عبر التاريخ من لدن ابراهيم إلى يومنا هذا موكباً واحدا يتوارثون التوحيد قرناً بعد قرن وجيلا بعد جيل وهو كذلك من حيث الحاضر توحيد للمسلمين يفدون من كل فج عميق يستوون فى لبسهم ويزدحمون حتى يصبحوا كتلة واحدة يطوفون حول مركز واحد كانوا من قبل يستشعرون الارتباط به بالصلاة إذ يُيَمِّمون شطره ويستشعر كل واحد منهم أنه كالمشدود بحبل إلى هذا البيت وأنه مع إخوانه مشدودون جميعاً ثم يفدون إلى بيت الله يطوف به من قريب ومادام فى المناسبة « مناسبة الحج » فما أحرانا أن يكون حديثنا عن : « معنى الحج الاول وهو معنى التوحيد فى عقيدة المسلم وحياته »

أما التوحيد فى معاني العقيدة فذلك حديث معروف : التوحيد فى حق الله أنه سبحانه وتعالى واحد قائم بذاته ليس مبثوثاً فى الطبيعة ولا متفرقاً فى مظاهرها ــ كما يظن الوثنيون ــ وأنه سبحانه وتعالى متفرد بصفات الكمال لايشاركه فيها أحد ولا يشبهه شيء ولا يضاهيه خلق وأنه سبحانه وتعالى كذلك متفرد بالخلق والامر وبالحاكمية لاتجوز الطاعة لغيره والتوحيد كذلك بأمر الكون أمر معروف أن الكون كله مهما كانت أسبابه ومهما كانت مظاهره مشدود إلى سبب واحد ومتصل بالله سبحانه وتعالى بصفة المخلوقية وانك أينما اتجهت وجدته آية تدل على الله وانك مهما تلفت فيه وجدت مظاهره كلها متسقة منسجمة « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور »

والوحدة كذلك فى شأن الانسان أنه يخلقه من نفس واحدة وأنه بعنصره من طبيعة هذا الكون ثم جانب آخر من جوانب الوحدة فى أمر الانسان جانب طوعي يدعى الانسان من لدن ربه وينذر ويبشر من لدن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أن يوجد أمره إلى أمر الله فاذا وحَّد حركته الطوعية مع أوامر الله أمكنه يوم القيامة أن يلقى ربه ويسعد برضوانه وبكلامه وبالنظر اليه وأن يعيش فى كنفه وفى جنته وفى رحمته وكذلك إذا وحدَّ أمره إلى أمر الكون فانسجم فى سلك الكائنات الساجدة لله « الاشياء الساجدة لله كرها » إن شاء هو بطوعه أن يسجد لله كما تسجد الكائنات فانسجم معها فى سلك واحد وأمِتّه كذلك فى يوم القيامة فدخل فى محيط يلائمه وسكن اليه ويطمئن اليه وهو محيط الجنة وإن تشاكس مع المخلوقات فهى عبدت الله كرها وهو أبى أن يعبد الله فى ما خيَّره فيه لقي نفسه في مشاكسة مع ما يحيط به يوم القيامة وتلك هى النار .

هذه المعاني معاني معروفة بالطبع وما أردت أن أتكلم اليكم هذا المساء فى هذه المعاني التقريرية النظرية ولكن أردت أن أتكلم فى العقيدة كما تنعكس أو كما تبدو أو كما تتجلى فى حياة المؤمن .. والواقع أنه قد شاع فى علومنا وفى علوم الغرب أن نفصم بين العقيدة وبين الحياة وأن نحسب العقيدة تقريرات نظرية أو تأملات فلسفية وقد شاع ذلك فى الغرب خاصة لأن الدين فى الغرب ولأن الحضارة الغربية من أصلين متباينين :

الاصل الأول : — هو الفكر الاغريقي القديم فى التأملات الفلسفية

والاصل الثاني : — هو النصرانية أو ما بقي منها في دين المسيحية .

ولذلك كان هناك إنفصام من حيث الاصول بين الفكر وبين العمل حتى فى علومنا الاسلامية كادت العقيدة أن تنفصم عن العمل وأن تصبح تقريرات واجبات أسماء نعرفها لله سبحانه وتعالى وواجبات فى حق الرسل وواجبات فى حق الله ومحفوظات نظرية نرددها ولا نحسب أن الخطر لايمكن أن يكون الا فى تلك الالفاظ أو فى تلك المفهومات .

والسر فى ذلك بالطبع أن الانسان دائماً يجنح نحو المادية ويجنح نحو الاشراك ولذلك ينفصم بحياته عن عقيدته وتبقى العقيدة نظرياً بينما هى تخرج الحياة من أثر العقيدة ولكني أود أن أتكلم عن العقيدة ، كما يريدها الاسلام عقيدة الايمان ليست هى بالتمنى ولكنها ما وصل فى الصدر وصدَّقه العمل تجد من شعابها إماطة الأذى عن الطريق والحياء وإكرام الجار كل الاعمال وكل الحركات وكل السكنات التي يأتيها المسلم ينبغي أن تكون تجلياً ومظهراً لعقيدته فلذلك إذا أردنا علل عقيدة وأمراض العقيدة ينبغي أن لانبحث عنها فى خطأ الاقوال أو خطأ التقريرات النظرية ولكن ينبغي أن نبحث عنها فى حياة المسلمين .

وإذا تحدثنا عن العقيدة فى حياة المسلمين وجدنا أن الحياة عند المسلمين تقوم على معنى التوحيد كذلك فهى من حيث الاطار كلها تقوم على معنى الابتلاء يعقبه يوم القيامة الجزاء وهى من حيث الهدف كلها تهدف إلى لقاء الله سبحانه وتعالى والدخول فى رحمته وجنته وهى من حيث الطريق كلها تقوم على عبادة الله سبحانه وتعالى على هدي من شريعته الواحدة المستقيمة وإذا بحثنا كذلك عن معاني « أو شعاب » العقيدة وجدناها كلها تتجه أو تتجلى فيها هذه الوحدة خذ مثلاً معاني الهداية والضلال : —

الهداية . هى الثبات على وجهة واحدة : المؤمن الذى يهتدى بنور الله سبحانه وتعالى ويسير على شريعته .. يسير على طريق واحد خُطاه كلها على ذلك الدرب لا ينحرف عنه ولا ينصرف ولا ينقلب عنه البتة خلافاً للذي يضل عن سبيل الله والذى يتبع هواه .. والهوى يتأثر بالظروف فينقلب بصاحبه يميناً ويساراً وقد يذهب فيه المذاهب ثم يبدو له رأى آخر فينقلب ويسير فى طريق أخرى ولكن المؤمن يسير على طريق واحد .

وكذلك معنى التوكل : التوكل معناه : أن المؤمن ثقة منه بشرع الله سبحانه وتعالى ثم بنصر الله سبحانه وتعالى يسير على ذات الطريق مهما بدت له من المخاطر .

والصبر كذلك : هو معنى إيجابي مقتضاه أن يسير المؤمن كذلك فى الطريق مهما صدّته المكاره ومهما قامت فى سبيله المؤذيات والمهلكات لا تزعزعه أبداً ولا تزله عن طريقه كل شعاب العقيدة والشريعة كذلك إذا نظرنا اليها وجدناها شريعة كاملة شاملة متناسقة لاتكاد تترك فى الحياة شيئاً إلا تفرغه إما بالتفصيل وإما بالاجمال .

ولكن لنتحدث عن واقع حياة المسلمين مادامت عقيدتهم تتجلى فيها معنى التوحيد بهذا الوضوح ويأبى الحديث عن المسلمين دائماً إلا حديث أمراض وعلل ولكن أريد أن أتحدث عن هذه الامراض من زاوية التوحيد فى العقيدة ومن زاوية إنعكاس هذا التوحيد أو الاشراك فى عقيدة المسلمين على حياتهم وهذه النظرة العملية بشأن العقيدة تجدها كثيرة فى القرآن .. فالانبياء كلهم دعاة إلى التوحيد ولكن ماكانوا يدعون إلى التوحيد نظرياً ما كانوا يكتفون من المؤمنين أو من اتباعهم بتلقين كلمة التوحيد أو بتعليمهم أركان العقيدة ولكنهم كانوا دائماً يترجمون العقيدة إلى معنى حي هذا المعنى قد يكون معنى إقتصادياً أو معنى سياسياً أو معنى أخلاقيا هذا بالطبع لايتطرق فيه النبي وإنما تفرضه الظروف القائمة فى تلك الأحوال .

خذ مثلا : نبى الله عليه السلام هودا : كان يدعو فى أمة غرّتها القوة السياسية الاستعمارية كانت تبطش فى الارض جبارة وكانت تظن أن لاقوى بعدها ولكنه دائما عندما يردد لهم أسماء الله

الحسنى ويحدثهم عن الله سبحانه وتعالى هو القوي يذكرهم بأن قوة الله سبحانه وتعالى أكبر من قوتهم ويذكرهم بأنهم مهما بنو فى كل آية من ريع يعبثون بها ومهما اتخذوا من المصانع ومهما بطشوا فان الله سبحانه وتعالى لهم بالمرصاد .

وكذلك نبي الله صالح : كان فى أمة متحضرة لها جنات وعيون وزروع ونخل ذات طلع هضيم وكانت تنحت من الجبال بيوتا فارهة ولكنه يريد منهم أن يوجهوا هذه النهضة الحضارية لا إلى مجرد المتاع المادى .. أن لايتخذوا من الحضارة المادية غاية لذاتها فانهم بذلك لاينتهون إلا إلى الشقاء وإنما ينبغي أن يوجهوا هذه الحضارة إلى الله سبحانه وتعالى بدلاً من أن يشركوا المادة بالله وينبغي عليهم أن يوحدوا الله وأن يتخذوا حياتهم المادية سبيلاً إلى الله وسلماً إلى الله وطريقاً إلى الله — هذا هو معنى التوحيد عند صالح عليه السلام .

وكذلك شعيب : وجد قومه يظلمون الناس ويفسدون فى الأرض ويطففون في الكيل ولذلك عندما ذكرهم « عندما دعاهم » إلى توحيد الله لم يدعوهم إلى توحيد تجريدي نظري ولكنه ذكرهم بأن لاينقصوا المكيال والميزان وأن يخافوا اللهواليوم الآخر وأن لايفسدوا فى الأرض وأن لايغمطوا الناس أشياءهم وخوفهم من عذاب الله سبحانه وتعالى وذكرهم بأنه لن يشفع لهم يوم القيامة .

الانبياء كانوا دائما يربطون قضية التوحيد أو قضية العقيدة مع المشاكل المطروحة الواردة فى واقع اليوم .

ولنأت اليوم لنتحدث عن واقع المسلمين وخلل العقيدة وخطأ العقيدة كيف ينعكس فى حياتهم وقد يتيسر لى باذن الله فى موضع آخر أن أحلل هذا الامر بطريقة شمولية منهجية ولكني أريد فقط أن أضرب الامثال .

كيف تشققت حياة المسلمين من إشراكهم بالله سبحانه وتعالى ؟!

وكيف إنفرط عقد التوحيد فانصرفت بذلك حياة المسلمين إلى شعاب متشاكسة ؟!

خذ مثلا : معنى « معاني الايجاب والسلب فى الدين » . :

الدين يدعو إلى الايجاب .. الدين يدعو إلى العمل الصالح .. يدعو إلى الجهاد .. وكل المعاني التي ذكرتها : التوكل معنى من معاني الايجاب .

الصبر معنى من معاني الايجاب .. لأنه سير على ذات الطريق وصبر على الاذى وعلى من يصدون فى سبيل الله — كل هذه المعاني —

والهداية : كذلك سير على هذا الطريق .

الدين يدعو إلى الايجاب من جانب ولكنه كذلك لينتظم هذا السير ولأن لا يختلط المسلمون

فى إنتفائهم ولان لا تتشاكس مجهوداتهم فى اقدامها يدعو كذلك إلى معاني تنظيمية : هي معاني التقوى : أن يتآخى المسلمون .. أن يتساوى المسلمون .. أن لا يظلم بعضهم بعضا .. أن لا يجور بعضهم على بعض .

ولكن المسلمين فصلوا أو فرّقوا بين معنى التقوى ومعنى الجهاد .. ولاننا ورثنا ديننا هذه الأيام عن عهود تخلف فيها المسلمون وقعدوا عن معاني الجهاد وأصبحت أغلب مفهوماتنا العقائدية معاني سلبية وفصلناها من المعاني الايجابية .

ماهو مثال المؤمن عند عامة المسلمين « المؤمن الصالح اليوم »

أصلح المؤمنين : هو المؤمن الورع الذى يتقى الحرام وليس هو المؤمن المجاهد الذى يعمل الصالحات فى ذات الوقت لكنه هو المؤمن الورع ، هو المؤمن القاعد فى مكانه الذى يأتيه الناس: شيخ الدين فى مجتمعاتنا الاسلامية هو رجل قاعد لايضر أحداً ولكنه لايصلح أحداً .. لايجاهد .. ولكنه لايفعل الحرام .

فأخذ الناس من الدين ترك المحرمات .. ترك المكروهات .. بل التنزه عن الوقوع فى الشبهات أخذوا منه هذا الجانب ـ وهذا الجانب هو الصحيح ـ ولكنه جانب السلب .

بل المسلم الافضل : هو المسلم الذى يجاهد وإن إضطره ذلك لأن يخوض غمار الحياة ولأن يخشى بعض الشبهات « لايستوى القاعدون من المؤمنين » بالطبع إلا إذا كانوا أولى ضرر « والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » كل أولئك مؤمنين ولكن « كُلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً » .

أي المؤمنين أفضل ؟!

رجل يجاهد فى سبيل الله ... ثم من :

ثم رجل مثل شيخنا القاعد يعبد الله ويدعوا الناس من شره .

ماهى الدولة الاسلامية المثالية فى عالمنا اليوم ؟!

هى الدولة التي تمنع المحرمات : ولكن ليست هى الدولة التي تطبق أحكام الشريعة الايجابية

أذكر أننا في حملتنا فى الدستور الاسلامي فى السودان : كان أغلب الناس يقولون لنا يكفيكم من الدستور الاسلامي أن تثبتوا مادة فى الدستور تقضي أن لا يثنى أي تشريع يعارض الشريعة الاسلامية تصورهم للشريعة الاسلامية أنها قائمة من المحظورات ومن المحرمات يذهب الانسان اينما ذهب ثم تقف الشريعة حائماً « كلا لاتفعل هذا » لاتفعل هذا : ولكن كان ينبغي أن لايوضع نص

سلبي .

كهذا أن يوضع نص إيجابي يقول : ينبغي أن توجب واجبات الشريعة .. ينبغي أن تطبق أحكام الاسلام .. ينبغي أن نسير أن نتقدم بهدي الاسلام .

ثم فى المكان الثاني : ينبغي أن لا نعارض الاسلام .. وينبغي أن لا ننتهك حرمات الاسلام .. وإن شئتم إسمعوا إلى حديث كثير من إخواننا المتحدثين مثلاً : فى المساجد تجدهم دائماً يتحدثون عن التقوى وما يترتب على التقوى .. تجدهم يؤكدون مخافة الله سبحانه وتعالى .. ومخافة الله سبحانه وتعالى حق ولكنها دائماً عند الناس تنطبق فى الخوف من الحرام .. العزوف عن المحرمات .. ولذة الحرام فى الناس برحمة الله سبحانه وتعالى .. والرجاء فى رضوان الله سبحانه وتعالى .. والرجاء والرحمة هى المعنى « هى الشعبة الأخرى » من الجزاء التي تدفع الناس دفعاً إلى العمل الصالح

خذ مثلاً : الفصل الذى شاع بالمسلمين بين العبادات والعادات : حياة المسلم كما تعلمون أصبحت هذه من بدائل الفكر الاسلامي كلها عبادة ولكن الحق أن فى الاسلام عبادات خالصة أو شعائر وأعمال أخرى ليست عبادات خالصة .. فالعبادات الخالصة هى الأعمال الموضوعة بشكلها للتعبد فقط فلذلك هى موجهة لله سبحانه وتعالى بنيتها وبشكلهـــا مثل : « الصلاة » هذه الحركات وهذه الأقوال لم توضع الا لعبادة الله الله سبحانه وتعالى ولذلك كانت هذه عبادة خالصة لله سبحانه وتعالى :

إختصر الناس عليها وتركوا العبادات الأخرى التي تأتي فى شكل عفوى ونسميها العادات لأنها تأتي فى شكل عادى .. فى صورتها الظاهرة قد يأتيها المسلم وغير المسلم وقد يأتيها المسلم الذاكر وقد يأتيها المسلم الغافل .. ولاتكاد تتبين الفرق بين العملين إذا نظرت إلى الشكل مثلا :

العمل السياسي :

مثلا : البيع والشراء :

قد يبيع الكافر ويشتري وقد يبيع المؤمن ويشترى ذاكراً وقد يبيع ويشترى غافلاً .. فهذه لاتصبح عبادة الا بالنية الباطنة التي توجّه هذه الأعمال لله سبحانه وتعالى بالطبع هناك شرط آخر وهى أن تلتزم بأحكام الاسلام – بسنة الاسلام – أن تكون صحيحة من حيث السنة فى ظاهرها ولكن أحكام السنة الظاهرة لا تحكم الأعمال كثيراً كما تحكمها السنة الداخلة .. فالناس يحسبون أنه ينبغي للعمل أن يكون متجهالله سبحانه وتعالى .. أن يكون موضوعاً لعبادة الله سبحانه وتعالى حتى يكون عبادة ولذلك تجدهم يفرّقون بين العبادات والمعاملات : ولكن المعاملات عبادات كذلك فقط ينبغي للمؤمن أن يصلها بالله وقد تكون هناك مقاصد قريبة قد يشترى الانسان ويبيع ليقتات

أو ليعول أطفاله أو ليقوي الجيش ولكن كلها مقاصد تندرج فى عبادة الله .. كلها مقاصد بنية المرء تتصل بعبادة الله سبحانه وتعالى فما دامت موصولة إلى الله سبحانه وتعالى ولو لم تكن متجهة اليه مباشرة مثل « الصلاة » فهى عبادات كذلك .. فلذلك تجدها تتجاور فى القرآن لا يفصل القرآن باباً للعبادات الخالصة وباباً آخر للعبادات غير الخالصة ولكن تجدها تتجاور .

وقد تيسر لى قبل زمن أن أكتب عن الصلاة لأثبت كيف تتجاور الصلاة وهى عبادة خالصة مع كل أعمال اليوم : تبدأ يومك بالصلاة ثم تصلى الظهر ثم تصلى العصر ثم تصلى المغرب ثم العشاء ثم ما يتخلل من ذلك من نفل هذه العبادة الخالصة الموضوعة لذكر الله تتخلل أعمال اليوم وتجاورها لتسرى فيها روح العبادة حتى يصبح اليوم كله عبادة وحتى الصلاة كثير من معانيها : معاني تعلّم المسلم روح العبادة حتى يتربى فى مدرسة الصلاة : ويطبّق هذه التربية على اقتصاده وعلى حكمه فى صلاة الجماعة يتعلم الامام آداب القيادة .. يتعلم أن لا يؤمّ قوماً وهم له كارهون .. ويتعلم إذا أمهُمْ أن يرى .. أن يرفق بهم وأ ّلا يثقل على ضعيفهم .. ويتعلم كذلك إذا أخطأ أن ينصت إلى تكبيرهم أو إلى تصحيحهم وأن يعود .. هذه أخلاق نتعلمها فى الصلاة لنتعلم كذلك فى السياسة أن يكون إمام المسلمين قائماً من بينهم بالاختيار والطوع لا بالجبر وأن يكون كذلك رفيقاً بهم وأن يكون كذلك خاضعاً لشوراهم إذا أخطأ الطريق أو إذا ضلّ عن طريق الشر ينبغي أن يذكّروه .. ويتعلم المسلمون كذلك آداب الامامة، أن لا يتقدموا على الامام، أن لا يسابقوا الامام فى الركوع والسجود .. كذلك عليهم أن لا يسابقوا إمامهم السياسي على أمر حتى يرجعوا اليه وأن يصلحوه إذا أخطأ .. فاذا خرج من الصلاة جملة واحدة تركوه .

فالعبادات الخالصة والعبادات الأخرى كلها متصلة متجاورة فى حياة الناس ولكن الآن فرّقنا بينها تفريقاً شديداً وإنصرف بذهلك معنى التوحيد فى حياة المسلم .. هذه العبادة توحد حياة المسلم وتجعل أعماله كلها متجهة إلى الله .. أعماله الحقيرة والخطيرة .. أعماله الباطنة والظاهرة .. أعماله السياسية والاقتصادية والشعائرية كلها تصبح مسيرة واحدة إلى الله سبحانه وتعالى .

خذ كذلك تفريق المسلمين بين شكل الحرف فى الاحكام وبين روحها : بالطبع الاحكام الاسلامية موضوعة بمقاصدها ولكن جاء على الشريعة زمان اصبحت الاحكام أو أصبح متأخرة الفقهاء ولا أقول متقدمتهم لأن الفقهاء الاوائل كانوا يعلمون الشريعة روحاً ونصاً روحاً وحرفاً .. ولكن أصبح متأخرة الفقهاء يهتمون بالفاظ الفقه وبحرفه وبنصه حتى أصبحوا مثلاً :

يُبطلون العقد إذا لم يتم بالفاظ معينة وحتى أصبح الشكل كل شيء .. ثم انقلب عليهم قوم آخرون .. كذلك فصلوا باطن الشريعة عن ظاهرها وهم المتصوفة — ولا أريد أن أشمل بكلامي

كل الذين يقال عنهم متصوفة — ففيهم رجال كانوا يلتزمون بالشريعة ويتعمقون فيها ولكن اشتط أناس كذلك فى الطرف الآخر وفصلوا بين الباطن والظاهر فى الاحكام وتركوا ظاهر الشريعة جملة واحدة وحسبوا أن الدين كله تأمل باطني وكشوفات وفتوح وأشياء لاتمتُ إلى ظاهر الحياة بصلة ومثل هذه الظاهرة — هذا الانفصام بين الظاهر والباطن — حدث كذلك فى تاريخ المسلمين حيث كانت الكنيسة من كثرة الطقوس ومن تكاثفها تظن أن كل الدين هو فى مراعاة هذه الاجراءات الدقيقة وفى التزام هذه الطقوس المتعددة حتى كاد الدين أن يصبح جسداً بلا روح ثم إنقلب على أولئك المصلحين أمثال : « كالفين » و« لوثر » فرفضوا كل إجراءات الكنيسة وكل طقوس الكنيسة وكل قوانين الكنيسة وقالوا : إنما الدين معنى يقوم بالنفس يقوم بالباطن . ولكن عندما إنتصرت هذه الدعوات الاصلاحية فى الكنيسة أصبح الدين المسيحي مجرد أمر باطني لا يؤثر فى سياسة الحياة ولا فى إقتصادها ولا فى أعمالها أصبح أمراً باطنياً بحتاً حتى فى فكرنا الحديث تجد فى كثير من الكتابات الحديثة يتحدث الناس عن نظام الاسلام الاقتصادي وعن نظام الاسلام السياسي ويهملون حقيقة جملة واحدة كأنما هذا النظام نظام مادى به يضاهى النظم الديموقراطية أو الاشتراكية لاسيما أولئك الذين يهتمون كثيراً بالمقابلات والمقايسات بين الشريعة وبين النظم الأخرى تجدهم يأخذون الشريعة مأخذاً ظاهرياً يأخذون أحكامها ومظاهرها الواقعة ويتركون دوافع تلك الاحكام ومعانيها الداخلية هذا الفصل لايمكن أن نجده فى القرآن أبداً.. أحكام الشريعة تجد فواصل الآي دائماً وراء أحكام الشريعة ، يتحدث القرآن عن الطلاق ثم فى آخر الآية يتحدث عن الخوف من الله وعن أن الله عليم حكيم وعن عقاب الله وعن رحمة الله كل معانى العقيدة كانت ترتبط إرتباطاً وثيقاً فى كل آية من آي القرآن الكريم بأحكام الشريعة .

الفصل الاكبر طبعا « الفصام الاكبر » فى حياة المسلمين بين الدين والحياة السياسية ومن بداءة الدين طبعا أن الحكم والعبادة أن الحياة الخاصة والحياة العامة وحدة متصلة مرتبطة بعضها ببعض وأن التربية التي يتلقاها المسلم فى حياته الخاصة تجديه فى حياته السياسية وأن السياسة أو الدولة ينبغي أن تكون كذلك مجالاً لعون المسلم لعمران حياته الخاصة بالدين ولكن إنفصلت السياسة عن الحياة وبذلك عطلنا عقيدة التوحيد فى هذا الجانب وبدأ هذا التعطيل منذ أزمان سحيقة فى تاريخ الاسلام . تخلف الفقه الاسلامي بالطبع عن النظر فى القضايا العامة ولذلك ترك الحكام بلا هاد وطاوع الحكام هواهم وكثير من الحكام الجبارين يتمنون أن لو عطلت الشريعة حتى يستبدّوا بهواهم ويعربدوا كما يشاؤون وإنفصل فى حياة المسلمين الوحدة بين واجباتهم العينية الخاصة وبين واجباتهم الكفائية التي يمارسونها مع إخوانهم المسلمين فأصبح المسلم أعنى بحياته الخاصة وبواجباته العينية « كالصلاة »

والنفقة على أولاده وتربية نشئه منه بالواجبات الكفائية هذا الانفصام بين الفقه والحياة وبين الواجبات العينية وبين الواجبات الكفائية وبين الهوى وبين توحيد الله لدى الحكام أبعد السياسة بالطبع عن الحكم جملة واحدة وأصابتنا العلل التي أصابت الأمم من قبلنا . هذا الفصام هو نفس الفصام الذى حدث في تاريخ المسيحية وتكاد تكون التطورات التي أدت اليه هى ذات التطورات التي أدت إلى إنفصال الدين عن الحكم المسيحي بالرغم أن الدين الاسلامي بالطبع « دين ودولة » . ولكن الدين الاسلامي النظري شيء والدين الواقعي الذى ورثناه عن آبائنا الاقربين شيء آخر ، لأننا لنا إسلام نظري فى الكتاب والسنة ولنا إسلام تقليدي يشبه النصرانية فى كثير . أصابتنا ذات العلل التي أصابت النصارى فأصبحوا مسيحيين قامت فينا ذات الكنائس التي قامت فى الواقع المسيحي – بالطبع لانسميها كنائس نحن – وإنما نسميها طرُقا . وابتعد الشعب عن الاسلام وانقطع الفرض عن الله جملة واحدة وإحتكر الدين لطبقة القادة الدينيين كما احتكر لطبقة القادة الدينيين فى المسيحية واحتكر هؤلاء الاجتهاد الفقهي وجمدوا به ووقفوا فى وجه الحركات الشعبية والحركات التي تريد أن تساير الحياة فثارت فى وجههم شعوب فابعدوا الدين والكنيسة جملة واحدة وهذا هو ذاته الذى وقع بالطبع فى بعض بلاد المسلمين .. المستعمر هو الذى فصل بين الدين والدولة ولكن توجد بلاد إسلامية إنفصل فيها الدين والدولة بتطور ذاتي من قبل المسلمين وتوجد بلاد أخرى يخشى أن تسير فى ذات الطريق .

خذوا كذلك مثلا آخر : التفريق بين الدين والمعاش : كثير من المسلمين يحسبون أن العقيدة وأن معنى التوحيد معنى العبادة والتوجه إلى الله جاء فى فراغ ولكن ليس ذلك بصحيح توحيد الله سبحانه وتعالى والتوجه اليه والتدين بعبادته إنما فرض على الانسان فى إطار التعامل مع واقع الحياة .

نزل الانسان إلى الأرض وسخِّرت له خلائقها وطلب منه أن يتفاعل مع الأشياء فيجد طريقه إلى الله من خلال هذا التفاعل وأن يتعامل مع البشر الآخرين فيجد طريقه إلى الله من خلال هذا التعامل مع الآخرين . ينبغي للانسان أن يُسخِّر الطبيعة لعبادة الله : كلما سخَّر الطبيعة وكلما تمكن منها كلما تكاثرت عليه نعم الله سبحانه وتعالى وكلما تكاثرت عليه النعم كلما تكاثر حمده لله فتكاثرت عبادته لله سبحانه وتعالى واتصل بربه وتوجه اليه وكذلك كلما تعامل مع الناس كلما زادت المناسبات التي يعدل فيها بينه وبينهم وكلما زادت المناسبات التي يؤجرفيها والتي يخاف فيها الله ويتقيه ويرجو رحمته ويخاف عذابه ويشكره ويعبر عن حبه : الحياة العامرة هى الحياة التي تطرح لك المناسبات الكثيرة للتعبير العملى عن حب الله ، عن شكر الله ، عن مخافة الله ، عن الرجاء فى رحمة الله . لكن الحياة الفقيرة التي لا يتعامل فيها الانسان مع الطبيعة والتي يعتقد فيها الناس حياة

فقيرة فى التعامل مع الناس وفى التعاون مع الطبيعة وهى كذلك حياة فقيرة دينياً حياة فقيرة فى عبادة الله لأن مناسبات شكر الله فيها قليلة ومناسبات الخوف من الله فيها قليلة لكن كثيراً من المسلمين يحسبون أن عبادة الله والتوجه اليه تتم فى فراغ ولذلك يتجادل المتجادلون الفقير الصابر مثله مثل الغني الشاكر وليس هذا صحيح إلا إذا كان فقر الفقير ليس من كسبه ولكن إذا كان الفقر من كسبه فهو مقصر وإلا إذا كان غنى الغنى ليس من كسبه وقع اليه بالوراثة أو بالهبة فليس له فيه فضل ولكن اذا استوت الامور فاكتسب المسلم وأثرى وشكر الله فى ثراه هو خير من الفقير الصابر لأنه قام بفضيلتين أنه زاد ووسع إمكاناته لعبادة الله سبحانه وتعالى ثم عبد الله فى إمكانات أوسع بينما الآخر قنع أو رضي بامكانات أضيق .. الواقع أن العقيدة الاسلامية كما صوّرها كثير من أصحابها وشُرّاحها كانت تصور للناس أن التوجه إلى الله ينبغي أن يكون أو كأنما يكون من خارج التعامل مع الناس ومن خارج التعامل مع الطبيعة ولذلك انحسر الدين عن التعامل، عن التمكن عن تسخير الطبيعة بالانسان كما أراده الله سبحانه وتعالى ولكن الانسان بالطبع معلق إلى الطبيعة بشهواته ولذلك لايمكن له أن ينصرف عنها ومادام الدين لايهدى، مادامت العقيدة لاتهدى ومادام لايجد معنى التوحيد فهو يُقبل على الطبيعة شرساً ، يُقبل عليها بشهواته فتخطئه عن الله سبحانه وتعالى تصبح هي غاية همّه ، تصبح الحضارة المادية، يصبح الأكل والشراب والثراء هو غاية همّه . لم نعلّمه أبداً أن العقيدة تعني أن يأكل وأن يشرب وأن يتمتع « وأن يتمتع بالجمال كذلك » ثم يجد من ذلك طريقه إلى الله سبحانه وتعالى ويوحّد الله سبحانه وتعالى بدلاً من أن ينقطع عنه ولكن النهضة الاقتصادية فى الغرب كلها قامت خارج الكنيسة لأن الكنيسة لم تكن تعتبر النهضة من عبادة الله سبحانه وتعالى ولذلك قامت نهضة مادية بحتة . كذلك النهضة فى بلادنا نحن الاسلامية ونحن أمة ناهضة ونحن أمة متخلفة ولكنا في سبيل النهضة . ولكن ما تجد فى بلد إسلامي تصاغ فيه النهضة صياغة تحقق معنى التوحيد أبداً هذه تكاد تكون خارج الدين جملة واحدة، صحيح أن بعض المعاملات معنى العدالة يدخل فى الدين بعض الشيء ولكن معنى النهضة الاقتصادية أن تجنّد دوافع الاسلام ، التوكل ودوافع الصبر ودوافع الاهتداء ودوافع عبادة الله سبحانه وتعالى لتحقيق نهضة إقتصادية متوجهة إلى الله . هذا أمر لانعهده كثيرا ولكن هذا هو الذى ينبغي إذا كانت الحياة كلها ينبغي أن تسخر لعبادة الله سبحانه وتعالى .

كان داود عليه السلام : علمه الله سبحانه وتعالى صنعةً « صنعة لبوس ليحصنكم من بأسكم هل أنتم شاكرون » وعندما « الآية التالية » بالطبع أتت على ذكر الجن مع سليمان يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات إعملوا آل داود شكراً كلما إزدادت صناعة وجد المجال متاحاً لشكر الله ينبغي أن تقوم النهضة الاقتصادية على هذا المعنى « على معنى العقيدة »

حتى إذا أخرجت لنا فرّامة للحم إتخذناها وسيلة لزيادة شكرنا لله سبحانه وتعالى وإذا أخرجت لنا سيّارة إتخذناها وسيلة ، كما نشكر الله على الخيل والبغال والحمير نشكره كذلك على هذه الآلة التي نبلغ عليها حاجة أسرع مما نبلغها على الانعام، وإذا أخرجت لنا المسجل نشكره سبحانه وتعالى أن مكننا من نشر الاسلام بالراديو – بالتلفزيون . النهضة الاقتصادية تتيح لنا مجالا أوسع لشكر الله سبحانه وتعالى ومجالا أوسع « مناسبات أوسع » لمخافة الله سبحانه وتعالى . ولكن لأننا فصلنا بين طلب المعاش وبين عبادة الله وضيعنا معنى التوحيد فى الحياة فنحن الآن لسوء الحظ بسبيل نهضة إقتصادية نخشى أن تكون بلاءً على ديننا . النهضة الاقتصادية المتجهة إلى الله تزيد الدين تزكية وإيمانا ولكن النهضة الاقتصادية ليست موجهة إلى عبادة الله ولا إلى مخافته ولا إلى رجاء رحمته تزيد النفس شراسة : تفسد علينا أخلاقنا وتخيِّب رجاءنا هذه هى النهضة الاقتصادية فى أوروبا إتخذوها نهضة إقتصادية مادية : ماهو حالهم اليوم : اليوم يئسوا من النهضة الاقتصادية وارتفع فيهم صوت لا بأس به يقول :

أوقفوا النهضة الاقتصادية جملة واحدة قد خرَّبت علينا أرضنا ، قد قبحت علينا وسطنا، قد أفسدت أخلاقنا ولا نجد سعادة فيها ، قد أشقتنا حسبنا أننا سنجد فيها السعادة فاذا بها شقاء .

والسبب : أنها نهضة ليست متجهة إلى الله سبحانه وتعالى .

خذ مثلاً آخر للعلم : العلم فى الدين كله واحد ينبغي أن يتجه إلى الله ولكنه شعبتان :

شعبة شرعية : تتصل بأمر الله الطوعي الموجه للانسان . هذه الشعبة لا نأخذها الاّ من الوحي : بالنسبة لنا نحن نأخذها نقلاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوحي وهي ما انتهت الينا بسبيل قطعي ذات دلالة قطعية . هذا هو العلم الشرعي .

وهناك العلم الطبيعي : الذي كذلك يتصل بأمر الله الموجه إلى الأشياء جبراً ورسولنا إلى ذلك العلم ليس هو الرسول البشري صلى الله عليه وسلم ولكنه هو العقل : هي الحواس التي ركبها الله سبحانه وتعالى فينا ويسألنا الله سبحانه وتعالى عنها . ونتائج هذه الحواس نتائج ظنية ما يكون للعلم الشرعي أبداً أن يقودنا إلى العلم الطبيعي . الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت ليعلّمنا أوامر الله فى الكون وإنما جاء ليعلّمنا أوامر الله الطوعية للانسان . وكذلك عندما إلتزموا برأيه فى سبيل النخب : قال لهم : ليس ذلك من أمر الدين ولكنه من أمر دنياكم : هو علم طبيعي وإنما قلت فيه بالظن فلا تؤاخذونى بالظن فاني أصيب وأخطىء . ولكن إذا حدثتكم بأمر على الله فذلك هو الدين وما يكون كذلك للعلم المادى أبداً أن يعلّمنا أوامر الشرع – كيف نتعامل كيف نتزاوج – كيف نتعامل فى الاقتصاد لأن هذه مسائل خلافية جاء بها الشرع ليبين لنا ما نختلف فيه ولأن كثيراً

منها مسائل غيابية لايمكن للعقل أن يتصل بها . وينبغي للعلم بشعبتيه أن يتحد فى الدين ينبغي كما نوحّد الله أن نوحّد العلم . يتناصر العلم الشرعي والطبيعي . ينبغي لنا أن نوجّه العلم الطبيعي إلى الله سبحانه وتعالى ، بالطبع العلم الشرعي واضح فيه معنى التوجه إلى الله ولكن ينبغي أن نوجّه العلم الطبيعي إلى الله ، والاّ كان ليس بعلم أصبح علماً ظاهرياً « ولكنّ أكثر الناس لايعلمون » يعلمون الظاهر من حياة الدنيا . ينبغي إذا نظرت إلى علم النبات أو علم الاحياء أن تنظر فيه من حيث هو آية تزداد بها معرفة بالله سبحانه وتعالى كما تزداد معرفة بالله بقراءة الآي فى القرآن الكريم . وينبغي أن تسخّره لعبادة الله كما تستعمل العلم الشرعي ليهديك كيف تعبد الله . ينبغي أن تستعمل العلم الطبيعي وتسخّره كذلك لعبادة الله وإن لم تفعل ذلك فلست بعالم : فالعلم العقلى والطبيعي ينبغي أن يتناصرا لعبادة الله سبحانه وتعالى ولكنهما فى تاريخ الاسلام لسوء الحظ مما ضيعنا من معنى التوحيد فى الدين إنفصل هذا عن ذلك وأصبح العلم الشرعي قائم بذاته بل أصبح كثير من الناس يظنون أن لا علم بعد النصوص وما خرج من النصوص والشارح لا يرجى منه صالح وأن هذا هو غاية العلم وأصبحوا يرون الرأى فى الفلك إستنباطاً من نصوص القرآن ويرون الرأى فى الطب إستنباطاً من نصوص الحديث ويرون الرأي في الفيزياء إستنباطاً وليس هذا بهدي الدين وانفصل كذلك العلم الطبيعي لاسيّما وأننا ورثناه عن أوروبا التي إنفصل الدين عن الحياة كلها جاءنا العلم الاوروبي منفصلاً عن الدين وأخذناه كما هو لاصلة بينه وبين الله سبحانه وتعالى ولا نسخّره أبداً لعبادة الله سبحانه وتعالى وذلك مما ضيعنا من علم التوحيد حتى كما قلت لبعض الاخوان ذات يوم ، حتى المسلم الواحد يكاد ينفصل فيه علم الدين في ذات نفسه تنفصم فيه شخصيته ، ينفصل فيه علم الدين عن العلم الآخر إذا ذهب ليدرس الاقتصاد يدرّس إقتصاده فى جامعته بمنهج لايعرف الله ولا يذكره ولكنه إذا عاد إلى مصلاّه أو درس الفقه الديني كذلك نسي إقتصاده ونسي علومه السياسية ونسي علومه الطبيعية التي درسها كذلك خذ الفصام وتضييع العقيدة الموحّدة فى علاقة الفرد بالمجتمع : الدين يوحّد الانسان إلى المسلمين ، يوحّد المؤمن إلى المؤمنين ويجعل المؤمنين كلهم أمة واحدة ولكنه يربط الانسان ، يحفظ للانسان وحدة صلته بالله سبحانه وتعالى ولا يجعل بين الأمة حائلاً بينه وبين الله سبحانه وتعالى. أما اليوم بالطبع فقد تفرقت الأمة الواحدة مما ضيعنا من التوحيد وأصبحنا فى كل شيء فُرُقا شتّى وعصبيات شتى إذا قرأنا القرآن قرأناه بقراءة مختلفة يتعصب كل منا لقرائته وإذا درّسنا الفقه ندرسه بمذاهب مختلفة وإذا أقمنا فى الأرض أقمنا شعوباً مختلفة وإذا حكمنا حكمنا كذلك دولاً مختلفة تُفرّق فى الدين وأصبح شيعاً ثم أصبحت الجماعة حائلاً بين الفرد وبين ربه أصبح الناس في تقوى الله يستترون بالجماعة هذا خطأ الحزب هذا خطأ الدولة ، هذا خطأ الجامعة ، هذا خطأ

أن التكليف فردي وأن الوُسْعَ فردي لكل إنسان وُسْعَهُ من العقل ومن الادارة ونسي الناس أن التكليف فردي وأن الوسع فردي لكل إنسان تكليفه المعين ومن التركيب النفسي ولكل إنسان ظروفه المعينة التي لا يشاركه فيها أحد ولكل إنسان تكليفه المعين بين الدين وواجباته وحقوقه التي لاتكاد تنطبق على أحد ولكل إنسان يوم الدين مسئوليته الذاتية لكن أصبحت الآن الجماعة حاجب تفسد للانسان هذه الوحدة — وحدة صلته بالله سبحانه وتعالى فأصبحت إما عصبية لايكاد يتحرك للدين الا من خلاله أو حاجباً يلقي عليها تبعات مسئوليته : هذه العلل أيها الاخوان : يمكن أن ننظر اليها من حيث هى علل سياسية أو علل إقتصادية أو علل علمية أو علل فنية بل إني لأ ظن أن الفن ذاته ينبغي أن يكون موجهاً إلى الله سبحانه وتعالى قد يكون ذلك غريباً ولكن الله سبحانه وتعالى يهدينا فى كتابه العزيز إلى أنه قد أتاح لنا مجالاً — للجمال فى الطبيعة — ومجالاً للزينة في كل مكان لكن ينبغي أن نوجّه زينتنا وجمالنا وفننا لذات الله سبحانه وتعالى

أما الفن كما يمارس في عالمنا اليوم فشيء مستنكر مستبعد لا صلة بينه وبين الدين — بالطبع — لحفظ هذه الصلة التي تربط بين ممارسة الفن أو من التمتع بالجمال أو الاستمتاع بالزينة ومن عبادة الله والتوجّه إلى الله ينبغي أن تراعى الشريعة لأنها هى التي تضبط سير الانسان إلى الله سبحانه وتعالى ما من أحد يتصدى لهذا الجانب ومهما أحد يحسب أن الجمال والزينة من حيث هى أصوات أو أشكال أو ألوان أن هنالك صلة بين الدين وبين التوحيد أو بين التوجه إلى الله سبحانه وتعالى أو بين العبادة وبين هذه المعاني قد يحسب الناس أن هذه الانحرافات سياسية أو إقتصادية أو علمية أو فقهية ولكنها فى واقع الأمر كلها مظاهر لعيب فى عقيدتها أننا عطلنا معنى التوحيد فانفصلت بذلك هذه المعاني بعضها عن بعض وإني لأرجو الله سبحانه وتعالى فى هذا المقام أن يهيء لأهل هذه البلاد .. أن يحققوا معنى التوحيد كما نريده .. هذه البلاد كانت — بالطبع — المنطلق لدعوة إبراهيم رائد التوحيد كما قلنا . وكانت كذلك هى المهد لدعوة التوحيد المحمدية وكانت كذلك فى الزمان القريب هى منطلق دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب » وهو كان داعية للتوحيد وكان لا يُدَرِّس التوحيد معلومات نظرية ولكنه كان يصارع بعقيدة التوحيد إشراكاً قائماً .. قضايا قائمة ، إشراكاً في الحياة اليومية ولكن — بالطبع — زال هذا الاشراك وتبدل إشراكاً آخر : زالت تلك العلة وتجدُ علّة أخرى : تجلى الاشراك اليوم فى هذه المعاني التي ذكرتها وفى غيرها من المعاني .

فأرجو أن يهيء الله لهذه البلاد من يحقق معنى التوحيد ومن يعالج هذه العلل الاشراكية الجديدة ومن يجعل التوحيد لاعلماً نظرياً يلقن للاطفال ولا ألفاظاً تقرأ ولكن حقيقة حية ، توحيداً بين المؤمنين في أمة واحدة وهذا يتحقق فى بعض الأمور فى الرابطة مثلاً فى ندوة الطلاب المسلمين فى الامانة

الاسلامية وكذلك ينبغي أن يتحقق التوحيد فى الدولة أن تكون الدولة محكومة بشرائع الدين على ذات الضبط الذى نحكم به الصلاة بنفس الدقة التي تأمر الانسان فيها إذا قام إلى صلاته كيف يضع أصابعه كيف يتوجه بها كيف يقيم رجله وكيف يقعد رجله الأخرى وكيف يسجد بذات الدقة وفى كل أمر من أمورها حتى نوحّد الله سبحانه وتعالى فى حياتنا..وكذلك النهضة الاقتصادية القائمة فى هذه البلاد ينبغي أن تقوم وأن توجه إلى الله كما توجه الصلاة وأن تضبط بأحكام الشريعة فى معاملاتها كلها وفى وجهتها كما ضبطت الصلاة وكذلك كل مظاهر الحياة : الفن الذى نرى جانباً منه فى التلفزيون مثلاً ينبغي كذلك أن يكون متوجهاً إلى الله سبحانه وتعالى مسخراً لعبادة الله سبحانه وتعالى محكوماً بطريقة الله سبحانه وتعالى وبشريعته .. هذه البلاد ما تزال على الفطرة .. هذه البلاد ذات إمكانات واسعة .. وهذه البلاد يمكن لها قبل أن تتمكن منها العلل أن تحقق معنى التوحيد وأن ترفع الاشراك جملة واحدة كما رفعته مرات عديدة فى تاريخها القديم .

وأسأل الله سبحانه وتعالى كذلك أن يهدي سائر المسلمين ليحققوا معنى التوحيد أولاً – بالطبع – فى فكرهم ثم فى واقعهم .

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يهدي المتحدث كذلك أن يحقق معنى التوحيد فى عمله وفى حياته وأن يهديكم جميعا إلى عبادته والتزام شريعته الواحدة وتوجيه حياتكم كلها المحقرات من أعمالكم والكبير من أعمالكم ، بواطن أعمالكم وظواهرها ، جوانبها السياسية ، سعيكم فى كسب المعاش ، صلاتكم ، نسككم ، محياكم مماتكم .. أسأله سبحانه وتعالى أن يوفقكم لتوجيهها كلها إلى الله لنحقق معنى الوحدانية الذي هو ركن الدين الأول .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته : ..

